

في نقد مفهوم الفضاء العمومي الهابرماسي

On a Critique of Habermas's Concept of the Public Sphere

كريمة بوفلاقة

جامعة الجزائر 3 (الجزائر)

Boufellaga.karima@univ-alger3.dz

تاريخ الاستلام: 2024/07/21 تاريخ القبول: 2022/././ تاريخ النشر: 2024/10/01

ملخص:

نسعى من خلال هذا المقال إلى عرض مفهوم الفضاء العمومي كما طرحه صاحبه "يورغن هابرماس" ضمن الجيل الثاني من "مدرسة فرانكفورت" النقدية، بالتطرق إلى السياقات التاريخية والسياسية والاجتماعية التي ساهمت في ظهور "فضاءات عمومية" في أوروبا لدى الطبقة البورجوازية. تميزت تلك الفضاءات بالمشاركة الحرة واشترطت العقلانية والتواصلية لطرح الأفكار وتداول الآراء حول قضايا الشأن العام، من أجل الوصول إلى اتفاق مشترك. لكن عبر تلك الرحلة أقصى هابرماس في صياغته للمفهوم بعض فئات المجتمع مثل النساء والعمال والأقليات و الأفراد المهمشين كما ذهب نقاده، إلى جانب العديد من الملاحظات التي أغفلها هابرماس ثم اعترف ببعضها لاحقاً، وهو ما يجعلنا نتعامل بحذر مع المفهوم خاصة في السياقات العربية التي غالباً ما تفتقد للنقاشات العقلانية وتستند إلى العاطفة والدين والعرف الاجتماعي لتبرير آرائها وإثبات مواقفها. كلمات مفتاحية: الفضاء العمومي، المدرسة النقدية، يورغن هابرماس، العقلانية، التواصلية.

Abstract:

This article examines Jürgen Habermas's concept of the public sphere, as developed within the second generation of the Frankfurt School of critical theory. The discussion delves into the historical, political, and social contexts that facilitated the emergence of "public spheres" in Europe, tracing their evolution from bourgeois to democratic, propagandistic, and consumerist environments. These spheres were marked by free participation and required rationality and communicative action for the exchange of ideas and opinions on public matters, with the aim of achieving a mutual agreement.

Nevertheless, Habermas's formulation, as noted by his critics, systematically excluded various social groups such as women, workers, minorities, and marginalized individuals. Furthermore, Habermas himself later acknowledged some of the criticisms initially overlooked, which necessitates a cautious application of this concept, particularly within Arab contexts. These contexts often lack the foundation of rational discourse, frequently relying on emotion, religion, and social norms to justify opinions and assert positions.

Keywords: Public sphere, Jürgen Habermas, rationality, communicative action, critical theory.

*المؤلف المرسل: كريمة بوفلاقة

1. مقدمة

ازداد الاهتمام بمفهوم الفضاء العمومي في الآونة الأخيرة لدى الأوساط العلمية والأكاديمية في الغرب وحتى في المنطقة العربية نظرا للأهمية التي يحملها هذا المفهوم كحلٍّ لأزمة الديمقراطية التي وقعت فيها المجتمعات الغربية، وكسبيل ممكن لترسيخ قيم الحرية والديمقراطية في العالم العربي، وربما يرتبط أيضا بظهور وانتشار استخدام الشبكات الاجتماعية، التي أصبح البعض يرى فيها تأسيسا لساحة (Agora).

ففي هذا الإطار تم إحياء الحوارات والمناقشات العلمية حول مفهوم الفضاء العمومي (Espace Public) منذ أن قام يورغن هابرماس (Jürgen Habermas) وريث مدرسة فرانكفورت بنشر كتابه "الفضاء العمومي: أركيولوجيا للإشهار باعتباره مكونا أساسيا للمجتمع البورجوازي" (L'espace public : Archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise) عام 1962، وكان موضوع أطروحته للدكتوراه في علم الاجتماع بجامعة ماربورغ (Marburg) بألمانيا، أعدّها تحت إشراف تيودور أدورنو (T. W. Adorno) أحد الرواد الأوائل لمدرسة فرانكفورت كدراسة اهتمّت بالنموذج الليبرالي للفضاء العمومي البورجوازي في أوروبا.

نقدم في هذا المقال نبذة عن مفهوم الفضاء العمومي كما طرحه هابرماس في سيرورته التاريخية، ثم نعرض على أهم الخصائص والأبعاد التي يشترطها المفهوم، لنعرض بعدها أهم الانتقادات الموجهة لمفهوم الفضاء العمومي الهابرماسي.

ولهذا نطرح التساؤل الآتي:

ما مفهوم هابرماس للفضاء العمومي، وما هي الانتقادات التي وجهت له؟

2. مفهوم الفضاء العمومي لدى هابرماس:

قام هابرماس في كتابه بإجراء دراسة تاريخية اجتماعية للتحوّلات البنيوية التي مست الفضاء العمومي البورجوازي منذ ظهوره في القرن 17، وبحث في الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي ولد وتطور في ظلها في إنجلترا وألمانيا وفرنسا، والدور الذي أدّاه في تطور المجتمع البورجوازي والاقتصاد الرأسمالي والجهاز الإيديولوجي الليبرالي. كما يصف لنا التفكك الذي لحق بهذا المفهوم خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

فبعد أن حدّد المسار التاريخي للفضاء العمومي البورجوازي في الفصل الأول من كتابه، وحدّد الهياكل الاجتماعية التي تحتضنه في الفصل الثاني، والمهام التي يؤدّيها الفضاء العمومي في الفصل الثالث، وراجع وضعه في أفكار كل من هوبز (Hobbes)؛ كانط (I.Kant)؛ هيغل (G.Hegel)؛ ماركس (K.Marx)؛ مروا بتوكفيل (A.D.Toqueville) وميلس

في نقد مفهوم الفضاء العمومي الهابرماسي

(Mills) في الفصل الرابع، لجأ هابرماس إلى تحليل دقيق للتحويلات البنيوية الأخيرة في الفضاء العمومي البورجوازي في الفصل الخامس، وصولاً إلى تفكير شامل حول مفهوم الرأي العام (Offentliche Meinung) في الفصل السادس.

ظهر مفهوم "الفضاء العمومي" في الفكر الفلسفي الألماني مع الفيلسوف كانط (Kant) في القرن الثامن عشر في حقبة تاريخية تميّزت بحراك معرفي وفكري أسهم فيه أقطاب فلاسفة التنوير في أوروبا ممّن سعوا إلى تأسيس منظومة قيمية ومفاهيمية شكّلت مسار الفكر الحدائي. فقد مثلت الحداثة آنذاك قاعدة للتغيير الهيكلي والقيمي في المؤسسات السياسية والثقافية وبناء المجتمعات الحدائية في أوروبا تحديداً (مفيدة العباسي، 2010/2009، ص 28)

ومع تجلّي أزمة الحداثة ومحدودية آليات الديمقراطية التمثيلية في المجتمعات الغربية اندرجت محاولة الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس في اقتراح تصوّر جديد للفعل الديمقراطي عبر مفهوم "الفضاء العمومي"؛ الذي يُعرّفه بصفته "المسار الذي يستحوذ من خلاله العموم (Public) المتكوّن من أفراد يحتكمون إلى العقل على المجال العمومي المسيّر من طرف السلطة، وتحويله إلى فضاء يمارس فيه النقد" (J. Habermas, 1990 p.45) ويتمثل هذا المسار في أعمال "العقل والحكمة الذي يجب أن يتمّ عبر اتصال عقلائي يمارسه عموم الناس ويجهرن بمداولاتهم ونقاشاتهم للعموم". J. (Habermas, 1990 p. 46)

فهو فضاء مفتوح ما بين الدولة والمجتمع، حيث يلتقي المواطنون ليناقدوا بحرية قضايا المصلحة العامة، بشرط أن لا يتشكل من عناصر الدولة ولا من الفاعلين الاقتصاديين الخواص المهتمين بالقضايا المصلحية الفردية، بل يتكون من جمهور عقلائي ومستنير، والذي سيكون في ظروف المناقشة الحرة المتحررة من أية علاقة مرجعية دوغمائية في السلطة والتقاليد قادراً على التعبير عن الاهتمامات العامة والأصيلة، ويكون قادراً على توليد السلطة الشرعية وبالتالي القيام بوظيفة سياسية.

وبذلك يحيل مفهوم الفضاء العمومي عند هابرماس إلى شروط الإمكانية الاجتماعية لتشكيل الرأي العام، ويقوم هذا الأخير على مهام النقد والتأثير والمراقبة التي يضطلع بها الفضاء العمومي تجاه الدولة.

إذن لقد تشكّل الفضاء العمومي تاريخياً كفضاء اجتماعي متميّز في ظل تطوّر الرأسمالية في أوروبا، واستخدمه الفيلسوف هابرماس كفتة تحليلية أو أداة مفهومية لدراسة العلاقة الرمزية العلنية بين المواطنين في اهتمامهم بالشأن العام من جهة، وفي علاقتهم بالدولة الديمقراطية من جهة أخرى (نصر الدين لعياضي، 2011، ص 32)

أظهر هابرماس في حفريّاته حول ظروف تشكّل الفضاء العمومي العلاقة التي تربط بين تطوّر الحسّ المصلحي للبورجوازية كطبقة ناشئة ترغب في التّموقع من جهة والحسّ المعرفي والنّقدي عندما اهتمت هذه الطبقة بمتابعة كلّ الإصدارات والمؤلفات ومعارض الرّسم ومواكبة كلّ ما يجدّ من علوم اقتصادية وإنسانية من جهة أخرى¹، فخلال القرن الثامن عشر ظهرت في أوروبا عدّة فضاءات من مقاهٍ وصالونات ونوادٍ وجمعيات فكرية؛ تتبادل فيها الطبقة البورجوازية الرّأي في مسائل الأدب والفن في المرحلة الأولى، ثم في مسائل السياسة في مرحلة لاحقة بعد نجاح الثورة الفرنسية، وزاد

كريمة يوفلاقة

نشاط تلك الفضاءات مع زيادة قراءة الصحف، فاتّسم النقاش خلال تلك المرحلة بالعقلانية والمحااجة (الصادق الحمامي (د.ذ.س)، ص 16)

تطوّر الفضاء العمومي بعد منتصف القرن الثامن عشر ليناقدش الأمور والقضايا السياسية التي كانت في الماضي أمورا خاصة بالدولة، وبإدخال القضايا السياسية في دائرة الحوار النقدي وقف الفضاء العمومي ضدّ الدولة وفي مواجهتها، ولكونه مجال المنطق والعقل والحيّز الوحيد للمناقشة والقرار الذي لا تُفسده تفاوتات القوة الاجتماعية والسياسية؛ فإنّه عكس سلطه كان على الدولة إدراكها، وكانت النتيجة التاريخية للحوارات النقدية التي تضمّنها الفضاء العمومي الدخول إلى الديمقراطية النيابية، ومع تحقّق ذلك استطاع المواطنون أن يكونوا خارج الدولة كناقدين ومراقبين لها، وداخل الدولة في شكل نواب تشريعيين (H. Mah, 2000, P. 157)، وبذلك فالفضاء العمومي هو ذلك الفضاء الواسطي الذي تكوّن تاريخيا في زمن الأنوار بين المجتمع المدني والدولة (D. Wolton, 1997, P. 66)

كما أنّ تطور وسائل الإعلام قد أعطى امتدادا جديدا ومهما للفضاء العمومي، فصارت تمارس الوظيفة النقدية التي بدأتها النوادي النخبوية خاصة منها الصحافة، غير أن وقوع وسائل الإعلام هذه تحت سيطرة المال والسلطة السياسية أفقدها القوة النقدية التي كان يمارسها الفضاء العمومي (عاشور فني، 2017)

لقد أدت سلطة المال على وسائل الإعلام إلى "سلعة" الفرد وحصر اهتماماته بما تنتجه الشركات العالمية المهتمة حصرا بالعلاقات السلعية والربحية والنفعية، "فكان من أهمّ علامات التحوّل ارتباط عملية إنتاج الكتب والمطبوعات بالآلة الإنتاجية الاقتصادية، حيث يرى هابرماس أنّ الثقافة في هذه المرحلة قد دخلت مرحلة "التبضيع"؛ وغدت سلعة ضمن سوق تعجّ بالسلع، ليس في شكلها فحسب بل في مضمونها أيضا، وهكذا انتشرت الكتب والمطبوعات الرخيصة والمجالات الترفيهية الموجّهة إلى متوسطي الثقافة، هذه الخطوة التوفيقية وإن كانت لها منافع مادية، فإنّها أسهمت في قتل الزوج النقدية التي كانت سائدة" (عمر مهيبل، 2005، ص 342)

هذه الفجوة ما بين مفهوم الفضاء العمومي وتجسيده الاجتماعي والتاريخي تتوسّع عند الانتقال من الدستورية الليبرالية إلى الدولة الاجتماعية الرأسمالية، فالعديد من آليات تشكيل الفضاء العمومي مثل التفكير العقلاني وإبداء الآراء والمشاركة في المناظرات السياسية، وتوليد الأفكار المرتبطة بالشأن العام، قد تعرّضت للتآكل في ظلّ عملية تسليع جوانب الحياة الحديثة كلّها، فحلّ محلّ الفضاء العمومي عالم من الاستهلاك الثقافي، وقام إجماع مختلق يربط الأفراد بالنظام القائم، ويقوّض إمكانية الفهم والاستقلالية أو المقاومة، وتمّ استبدال المناقشات النقدية العقلانية بالمشاهدات المسلية، وانحلّت شبكة التّواصل الحرّ للفضاء العمومي إلى أفعال استجابة فردية منفصلة، ولم يعد الجمهور العام الذي يكون الفضاء العمومي قادراً على أن يتأمّل نقدياً في المسائل العامة، وإنّما صار مجرد مستهلك (جون إهرنبرج، 2008، ص 414)، فأصبحت ثقافة "النقاش" ثقافة "استهلاكية"، وعوّضت "بلاغة الخطاب" بـ "التسويق السياسي"؛ كما يقول هابرماس.

في نقد مفهوم الفضاء العمومي الهابرماسي

فتحوّلت الفضاءات العمومية المختلفة إلى أماكن للتأثير السياسي والتسويق والبحث عن الهيمنة والولاء، وتحوّل الاتصال من وسيلة لتحقيق التفاهم والاتفاق والبحث المشترك عن الحقيقة إلى اتصال يسعى إلى تكريس الهيمنة (الصادق الحماي (د.ذ.س) ، ص 16)، وهكذا لم يعد الفضاء العمومي قادرا على أداء الوظيفة النقدية التي نشأ من أجلها، بل أصبح هذا الفضاء امتدادا للسلطات المهيمنة تصرفه حسب إستراتيجياتها: سلطة المال والسلطة السياسية والسلطة الإيديولوجية (عاشور فني، 2017)

إذا كان الإجماع يتحقّق بمجرد مشاركة المواطنين في نقاش عقلاني حر؛ فإنّ أيّ "عوائق تمنع وتقيّد هذا النقاش الحر تؤدّي إلى أن يصبح التّواصل مشوّها"، و التّواصل المشوّه هو الاسم الذي يطلقه هابرماس على الإيديولوجيا التي يفهمها على أنّها التّأثير القمعي الذي تمارسه السّلطة على تواصل المواطنين، إذ لا تمنع الهيمنة الممارسة على عملية التّواصل من الوصول لفهم مشترك وإجماع، بل تُزيّف هذا الفهم وتُشوّه التّواصل، وتصنع منه "إجماعاً زائفاً؛ لا تتوافر فيه الشّريعية العقلانية" وهذا ما أدّى إلى "تفكك الفضاء العمومي" حسب تعبير هابرماس، وتمّ بذلك عزل الجماهير عن عملية النقاش العام وعمليات اتّخاذ القرار، وتمّ نزع الصّفة السياسية عنهم (J. Habermas, 1976, P.P. 81. 224)

وهنا بدأ المواطنون يفقدون كثيرا من أهميّتهم الاجتماعية، ولم تعد القوانين والتشريعات تصدر نتيجة لحلول وسط يتوصّل إليها الأفراد من خلال عملية حوار نقدي أو نتيجة لإجماع يصدر عن هذا الحوار، بل نتيجة مساومات تحدث بين مصالح خاصة اقتصادية (أبو النور حمدي أبو النور حسن، 2012، ص 197)، ولم يعد الرأي العام هو القوة المحركة، بل تم تحويله إلى إجماع جاهز للتركية"، كما تم تهميشه وإفراغه من معانيه الجدلية، فتحوّل إلى مجموعة فرعية نفسية اجتماعية بسيطة تعبّر بطريقة غير لفظية وبدون أي تفكير ونقد.

يقول هابرماس "إنّ نزع الصّفة السياسية عن الجماهير واضمحلال المجال العام باعتباره تنظيمًا سياسيًا يعدّ أحد مكوّنات نظام الهيمنة؛ الذي ينزع إلى عزل المسائل العملية عن النقاش العام، إنّ الممارسة البيروقراطية للسلطة يقابلها مجال عمومي مقيّد بأشباح الإعلام والدّعاية"

لذا حاول هابرماس أن يظهر اغتراب الوعي الجماعي داخل منظومة الدّعاية الغربيّة؛ بفحص أساس وبنية النّمودج الليبرالي البورجوازي، فالدّعاية حسب هابرماس مبدأ للسيطرة "تخلقه و تُنشئه البورجوازية للأفراد المتعلّمين والقادرين على التّفكير، بهدف أن يكون هذا المبدأ وسيلة لطرق سياق منظمّ ومقبول يسمح للدولة بممارسة سياستها وأهدافها" (J. Habermas, 1989, P. 9)

يقدم هابرماس مفهوم الفضاء العمومي على أساس أنّه مفتاح الممارسة الديمقراطيّة، وهو عبارة عن دائرة التّوسّط بين المجتمع المدني والدّولة، يعتبره فضاء مفتوحا يجمع بين الأفراد لصياغة رأي عام، والتّحوّل بفضلته وعبره إلى مواطنين تجمعهم آراء وقيم وغايات (الناصر عبد اللاوي، 2012، ص 111) فيعرّف الفضاء العمومي بأنّه "ظاهرة

كريمة يوفلاقة

اجتماعية أولية، شأنها شأن الفعل والفاعل والجمعية والجماعة، لكنّها ظاهرة تستعصي على المفاهيم التّقليدية للنّظام الاجتماعي التّقليدي" (J. Habermas, 1996, P. 360)

3. أبعاد الفضاء العمومي بالمفهوم الهابرماسي:

الفضاء العمومي بشكل عام هو تلك المساحات التي يقوم فيها الأعضاء بتناول ما يفضّلونه، ويصلون لقرار حول كيفية العيش المشترك والعمل معاً بشكل جماعي خلال المستقبل، وهناك ثلاثة مظاهر تميّز الفضاء العمومي أولها أنّ المشاركة فيه مفتوحة وثانيها أنّه يساوي بين مواقع وأدوار الأطراف المشاركة فيه بصرف النظر عن أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، وثالثها أنّ أية قضية فيه تكون قابلة للنّقاش (هشام عبد المقصود، 2009)

ويمكن توضيح الأبعاد التي يشترطها الفضاء العمومي وفقاً لما حدّده هابرماس كما يلي:

3-1- إشهار وإعلان الأفكار:

يساعد اهتمام الدولة بتزويد مواطنيها بالمعلومات والبيانات الجديدة ذات الصّلة بالقضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية المثارة داخل المجتمع على تنمية قدرات المواطنين تجاه عملية المشاركة الديمقراطيّة في الشّأن العام. وقد شكّل العنن الحجر الأساس في البناء النّظري لمفهوم الفضاء العمومي كما صاغه هابرماس، إذ شخّصه فعلياً في التزام الدولة بالتبليغ والإعلان عن أفعالها وقراراتها ومشاريعها، وإطلاع مواطنيها عليها بمختلف السّبل بشكل مباشر وغير مباشر، حتى يستطيع المواطنون الخوض في الشّأن العام والانخراط فيما يثيره من مناقشات عامة وهم على دراية عامة بالشّؤون العامة التي تهتمّهم، ممّا يسمح لهم بتشكيل رأي عام حولها (نصر الدين لعياضي، 2017، ص 35)

3-2- الشمولية وتجاوز الخاص إلى العام:

يحدّد هابرماس الشّمولية التي يتّسم بها الفضاء العمومي على أنّها طرح و تداول عموم الأفراد لمسائل ومواضيع تتجاوز مشاغلهم الدّاتية الضيّقة لتشمل المصالح العامّة التي تهتمّ البلاد، ويكون الهدف من نقاشاتهم ومداولاتهم الوصول إلى اتفاق عقلائي عام من أجل هذا الصالح العام (مفيدة العباسي، 2010/2009، ص 31)

ويؤكد هابرماس أنّ تشكّل الفضاء العمومي في ظلّ البورجوازية تم بفضل الفصل ما بين العام والخاص، إذ أنّ السياسة لا تمارس في أطر خاصة، بل في الساحة العامة وأمام المألّ لما تتطلبه من مشاركة والتزام، بينما يظلّ الفضاء الخاص مكاناً تتجلى فيه ضرورات الوجود بما تقتضيه من سرية (نصر الدين لعياضي، 2011، ص 34)

3-3- المساواة:

يشير هابرماس إلى أنّ الفضاء العمومي يظهر إلى الوجود من خلال كلّ حوار يتجمّع فيه الأفراد الخصوصيّين لتشكيل هيئة عامّة دون اعتبار للفروق الاجتماعية التي تكون بينهم

(J. Habermas, 1974, P. 49)، فيدعو كما يقول فرانسوا إوالد (François Ewald) إلى "المساواة بين جميع الأفراد أو الدّوات بمنحها حرّية الحجاج والديمقراطية اللّازمة للدّفاع عن وجهة نظرها أو الحقيقة الخاصّة بها، إلى أن يتّفق أطراف الخلاف أو الجدل إلى حل" (فرانسوا إوالد، 2004، ص ص 151-152)

3-4- الحرية:

يفترض وجود الفضاء العمومي وجود أفراد يتمتّعون باستقلالية كبيرة وقادرين على أن يُبلّوروا بأنفسهم آراء ووجهات نظر خاصّة؛ لا تكون صدى لآراء النّخب الحاكمة أو الأحزاب التي ينتمون إليها، ويعتقدون بأنّه من الممكن التوصل إلى حلول عن طريق الحوار والنقاش؛ وليس عن طريق استخدام العنف (حسن مصدق، 2005، ص 9)

تلك الحرية لا تتأتّى إلا في المجتمعات التي تؤمن بها وتسعى لترسيخها، بحيث يمكن للأفراد التعبير عن آرائهم السياسية خاصة للمساهمة في بلورة نقاش عام يساهم في حل المشاكل وإيجاد الحلول.

3-5- العقلانية:

إنّ العقل في نظر هابرماس وغيره من فلاسفة القرن الثّامن عشر يحيل إلى "الأنوار"، إلى إنارة الشّيء وتوضيحه والإعلام عنه، ويشي بمقدرة الإنسان على التّمييز بين الخير والشرّ والنّافع والضّار، فالإنسان مطالب بممارسة قدراته العقلية لاستجلاء الحقيقة؛ بتقييم المعلومات والآراء والحجج التي تُعرض عليه. فإذا تمّ تحييد العنف لفرض الرّأي فستظلّ مقارعة الحُجّة بالحجة هي الوسيلة لإدارة التّزايدات بين مصالح الأفراد خدمة للمنفعة العامة، فوجود الفضاء العمومي مرهون بالّتزعة العقلانية (نصر الدين لعياضي، 2011، ص 37-38)

و تستند العقلانية عند هابرماس إلى المجادلة والنّقاش بين الأفراد، والالتزام بحق الاختلاف والتنوّع والتعددية، وتحقّق قبولها من المجموعة على أساس العقل لا النظرة الذاتية الضيقة أو على أساس ردود انفعالية أو على أساس تضخيم وتهميش حجة ما على أخرى بهدف المناورة والتضليل (مفيدة العباسي، 2010/2009، ص 40)

يسعى مشروع هابرماس الفلسفي إلى صياغة قواعد جديدة للفكر، متحرّرة من التسلّط والهيمنة والبيروقراطية والتشوّ والرأسمالية، ووضع قواعد تقوم على الحوار الحر واللّغة بين الأفراد كأُسرع وسيلة للتفاهم (أبو النور حمدي أبو النور حسن، 2012، ص 5)، ويقصد هابرماس بالتواصل ذلك التّفاعل المصاغ بواسطة الرّموز، إنّهُ يخضع ضرورة للمعايير المعمول بها، والتي تحدّد تطلّعات السلوكيات المتبادلة، بحيث يتعيّن أن تكون مفهومة ومعتَرفاً بها من طرف شخصين فاعلين على الأقل (Habermas, 1973, P. 22.)

وتسعى العقلانية التواصلية إلى ضبط علاقة الفرد بالآخر وإخضاع العلاقات القائمة داخل المجتمع لأخلاقيات المناقشة التي ينادي بها هابرماس (مفيدة العباسي، 2010/2009، ص 39)، والتي لا تقوم على الغلبة وهوس القوة والحذلق الخطابية، بل تقوم على المحاجة والإقناع (حسن مصدق، 2005، ص 12)

و يستحضر هابرماس بعض القواعد لإنجاح أي حوار يمكن تلخيصها كما يلي:

- لكلّ ذات قادرة على الكلام والفعل نصيباً كاملاً في النّقاش
- لكلّ منها الحق في إثارة أيّ إشكال أو اعتراض أيّ تأكيد
- لكلّ منها حق التّسليم بأيّ إثبات في معترك النّقاش
- لكلّ منها الحق في التّعبير عن وجهات نظرها كما رغباتها ومتطلّباتها
- لا يجوز منع أيّ متحاور من النّقاش ولا استعمال الضّغط ضده داخل أو خارج النّقاش بغية منعه من الاستفادة من حقوقه كما هي محدّدة (J. Habermas, 1987, p.p. 110-111)

إنّ إقرار الشّركاء بمعايير أخلاقية إجرائية حول طريقة إدارة الحوار بينهم تضمن لكلّ منهم الحق في المشاركة في النّقاش بكل حرية ومساواة، ويتيح احترام هذه القواعد الوصول إلى توافق عقلائي بدون ممارسة أي ضغط أو إكراه، فحين يقرّ المتحاورون بمعايير جماعية أثناء تواصلهم؛ تنشأ مصلحة مشتركة بين كل الأطراف المعنية للوصول إلى توافق عبر نقاش يشترك فيه الجميع للتّشاور حول المصلحة المشتركة.

4. الانتقادات الموجهة للفضاء العمومي بالمفهوم الهابرماسي:

حاول عرض بعض الملاحظات والانتقادات التي وجهت لمفهوم الفضاء العمومي الهابرماسي، والتي اعترف هابرماس نفسه ببعضها وحاول تبرير بعضها الآخر؛ نحاول جمعها في ما يلي:

4-1- التنظير للفضاء العمومي كنموذج أوروبي خاص:

تعرّضت رؤية هابرماس حول الفضاء العمومي إلى العديد من الانتقادات الحادة، التي أصدرها البعض انطلاقاً من كونها تنطبق على فترات بعينها من التاريخ الأوروبي، وهذا بدوره جعل من تصوّر هابرماس للفضاء العمومي يمتاز بالضيق والانحسار.

فالفضاء العمومي عند هابرماس يعكس تجربة تاريخية أوروبية خاصة في جوانبها الفلسفية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، إذ تتعلّق بالممارسة السياسية الديمقراطية، لذلك فالمصطلح بحاجة إلى توسيع المجال الحضاري لضبط المفهوم، مع الأخذ بعين الاعتبار التحولات الكونية التي خضع لها المفهوم وكذا مراعاة التطلّعات الوطنية للتحقق الثقافي و السياسي من جهة ثانية.

و يؤكّد هابرماس أنّ المثال الليبرالي والديمقراطي كانت له أسسه الواقعية التي قام عليها، إلّا أنّ تطوّرات المجتمع الغربي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر تناقضت مع هذا المثال، ويضيف أنّ "الممارسة السياسية في المجتمعات الغربية تستند إلى نفس المبادئ الليبرالية التي وجدت في الفضاء العمومي وتستمدّ منها شرعيتها، ومصدر هذه الشرعية يرجع إلى حرية المواطنين في تشكيل إرادتهم السياسية واختيار حكوماتهم والتأثير عليها، لكنّ واقع هذه المجتمعات تناقض مع هذه المبادئ" (J. Habermas, 1989, P. 14)

4-2- المبالغة في اشتراط النقاش العقلاني لتشكيل الفضاء العمومي:

"يرتكز النّقد الذي وُجه إلى مفهوم الفضاء العمومي الهابرماسي على القراءة المثالية لدور الفضاء العمومي في الديمقراطية الحديثة التي تُضخّم دور العقل والحجة في تطوّره، وتُنكر مساهمة أشكال الخطب غير الجدالية وكذا العقلانية القائمة على السرد والأسطورة في تشكّل الفضاء العمومي. وتراه في صيغته الفريدة والمركزية وتعتبره ظاهرة عقلانية، وتُغفل بالتالي دور الفضاءات العمومية الشّعبية" (نصر الدين لعياضي، 2011، ص 2)

ويذكر بالاريني (Ballarini) بأن هابرماس استعمل "الاستخدام العلني و العمومي للحجة" عشرات المرات في كتابه المرجعي المذكور، وقد استعار هذا التعبير من إمانويل كانط . ويرى أن هذا الاستخدام لا يملك أية أهمية في حد ذاته ما لم يكن مرتبطاً بغاية، وهي تمديد فكر الأنوار" (نصر الدين لعياضي، 2017، ص 5)

أضف لذلك أنّه بمجرد ظهور التناقضات الاجتماعية داخل الفضاء العمومي، فإنّ الحوار يفقد سمة المناقشة العقلانية الخالية من السّلطة والسيادة، وهنا تظهر عملية اختراق ما بين كلّ من الدّولة والمجتمع بشكل متزايد، وبالتالي فإنّ هذا الاختراق يدّمّر أساس الفضاء العمومي الليبرالي.

وإذا كان النّموذج الهابرماسي للفضاء العمومي يغالي في طابعه العقلاني، فإنّ "الدّروس التاريخية التي تؤكّد احتكام النّقاش العام إلى الحجّة والمنطق والعقل للدّفاع عن المصلحة العامة شحيحة جدّاً، بل إنّ مآسي الحروب الأهلية و النزاعات المسلّحة الدّاخلية التي أعادت النّظر في الخريطة الجغرافية والسياسية للعديد من الدول خاصة الأوروبية منها تفنّد هذه المغالاة" (نصر الدين لعياضي، 2011، ص 2). وهنا "ترفض نانسي فريز التعريف الهابرماسي

كريمة بوفلاحة

الذي يحدّد المشاركة في جمهورٍ مثقفٍ يتقن استعمال العقل بشكلٍ نقدي، لأنّ المجتمع المعاصر يختلف جذرياً عن مجتمع القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

يعتبر الكثيرون مقارنة هابرماس العقلانية للفضاء العمومي حالة مثالية لا يمكن تحقيقها حتى في المجتمعات الغربية الديمقراطية، ناهيك عن المجتمعات غير الديمقراطية، ويبرّرون رؤيتهم تلك بكون النقاش العمومي الذي يجمع عدة أطراف متناقضة الأفكار لا يمكن أن يفضي إلى العقلانية والمحااجة. "لذلك يرى الكثيرون أنّ القصد السياسي لهابرماس هو بعث الروح في "مشروع التنوير".

3-4- التشديد على ضرورة انتهاء النقاشات في الفضاء العمومي بالتوافقية:

عرّف هابرماس الفضاء العمومي باعتباره مجالاً للمحادثات غير المرغوبة الموجهة نحو اتفاق حول مصلحة مشتركة، ما عرّض موقفه لهجوم من قبل ما بعد البنيوية؛ مثل ليوتار (Lyotard) الذي شكّك في إمكانية توافق الآراء من خلال النقاش العقلاني (M. Poster, 2017).

و يرى لعياضي أنّ التوافقية الخالية من النزاع التي يرمي إليها هابرماس تتنافى مع المعطى التاريخي. ومن ناحية أخرى فإنّ البعض يرى أنّ الفضاء العمومي ليس حيزاً يتطور فيه النقاش العام الذي يسمح بتشكيل رأي عام، بل للنشر والإعلان عن نتائج جمع الآراء الفردية (نصر الدين لعياضي، 2017، ص 5-6).

4-4- التركيز على الفضاءات العمومية، وإهمال الفضاءات الشعبية والبديلة:

إذا كانت نظرة هابرماس تقتصر على الفضاء العمومي البورجوازي وأغفلت الفضاءات الأخرى، فإنّ تعددية الفضاءات لا تعني انحراف الفضاء العمومي، وقد سعى النقاد إلى إثبات وجود أكثر من نموذج للفضاء العمومي من خلال تأكيدهم على أهمية الفضاءات العمومية الشعبية أو البديلة التي أغفلها هابرماس، فالقراءة التاريخية تؤكد أن هذا الفضاء قام على الإقصاء مثل إقصاء المرأة على وجه التحديد (نصر الدين لعياضي، 2017، ص 5).

و تنطلق انتقادات نانسي فريزر (Nancy Fraser) كذلك لمفهوم هابرماس حول الفضاء العمومي من عدم الاهتمام بالفضاء العمومي ما بعد البورجوازي، وتشدّد بأنّ رؤية هابرماس مبنية على أسس وطنية ضيقة تجاوزها التاريخ، وتتعارض مع معطيات الواقع الاجتماعي الجديد (رشيد العلوي، 2017).

5-4- الاعتقاد بإمكانية الفصل بين الفضاء العام والفضاء الخاص:

"إنّ السؤال المطروح الذي يثار حول التصور الهابرماسي للفضاء العمومي يتمثل في صعوبة الفصل بين العام والخاص في الحياة المعاصرة التي تزداد تعقيداً، خاصة بعد أن أثبتت تكنولوجيا الاتصال الحديثة مقدرتها الكبيرة على هدم الحدود الفاصلة بين الحياة الخاصة والعامة" (نصر الدين لعياضي، 2011، ص 35).

ويلتقي حول هذه النقطة الكثير من نقاد هابرماس، فتؤكد دومنيك ماهل (Dominique Mehl) على سبيل المثال أنه من المناسب الحديث عن تمفصل الفضاء العام والخاص وتداخلهما عوضاً عن الفصل بينهما. لذا تقترح الحديث عن فضاء عمومي جديد تكون فيه القضايا الخاصة مرئية وحاضرة في النقاش باعتبارها عمومية وخاصة. و لعله لهذا

السبب لا يرى (Nicholas Garnham) فصلا بينهما ويعتقد بإمكانية أن يكونا عموميين (نصر الدين لعياضي، 2017، ص 5)

4-6- التسليم بدور البورجوازية الوحيد في تشكيل الفضاء العمومي:

حاول نيغت أن يلفت انتباهه هابرماس إلى مجموع الديناميات الاجتماعية والسياسية التي تركت بصمات حقيقية في تاريخ أوروبا، مُركّزاً على الفضاء العمومي الألماني خلال ثورة 1918، وعلى الفضاء العمومي الفرنسي؛ حيث لعبت حركة ماي 1968 الدور الأبرز في ظهور فضاء سياسي عمومي مهّد لديمقراطية فرنسية جديدة مغايرة تماماً لديمقراطية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (رشيد العلوي، 2016)

و لهذا السبب يشكّك نيغت في دور البورجوازية كطرف وحيد في ظهور الفضاء العمومي، و يحاول إظهار طبقات وفئات اجتماعية أخرى ساهمت بدورها و لعبت أدواراً في نشأته وهي الطبقة العاملة والتي بدونها لا يمكن أن توجد البورجوازية، إلى جانب فئات اجتماعية أخرى كالطلاب والنساء.

4-7- انحراف وسائل الإعلام عن دورها التنويري وسقوطها ضحية التسليع والتسلية:

لم يقتصر التسليع على المضامين التي تبثها وسائل الإعلام فقط، بل امتد إلى العلاقات الاجتماعية التي تنشأها، بيد أن هذه الحقيقة لا يمكن أن تخفي النظرة الإزدرائية للتسلية التي تقوم بها الوسيلة الإعلامية. ليس هذا فحسب، بل إنها تنفي أية صلة للتسلية بالفضاء العمومي (نصر الدين لعياضي، 2017، ص 6) ولذلك تنظر النظريات النقدية التي جاءت بعد هابرماس إلى عيوب خلفها الفضاء العمومي ليس أقلها دخول الفرد في أدب وسائل إعلام المجتمعات الحديثة كمستهلك شديد وليس مشاركاً تفاعلياً.

4-8- النظر إلى الفضاء العمومي كمفهوم معياري صالح لكل مكان وزمان:

"يرى الكثير من النقاد أن "الفضاء العمومي" من المنظور الهابرماسي انتقل من كونه بناء اجتماعياً للعلاقات التي تتوسط المجتمع والدولة في القرن 18 إلى إطار معياري لا زمني يشكل نموذجاً للفضاء العمومي في كل الحقب التاريخية ولكل المجتمعات. و قد وضع (Neumann) هذه الفكرة بالقول أنّ هابرماس لم يتمكن من تجاوز المشكل الموروث عن كانط؛ والمتمثل في التباين بين المفهوم المتعالي عن المكان والزمان والممارسة الاجتماعية، ويبدو أن هذا الرأي/الحكم لم يأخذ بعين الاعتبار التصحيحات التي قدمها هابرماس للفضاء العمومي"، إذ اعترف لاحقاً بأن "الفضاء العمومي ليس بنية معيارية متميزة الاختصاصات والأدوار"، ورأى أنّه "يمكن وصفه بشكل أفضل كشبكة تمكّن من نقل المضامين والمواقف المتخذة والآراء" (نصر الدين لعياضي، 2017، ص 6)

4-9- النظر إلى الفضاء العمومي كمكان ملموس:

يبدو أن العلاقات الاجتماعية المعاصرة تخلو من مستوى أساسي من الممارسة التفاعلية؛ وهي الأماكن التي كانت في الماضي مصفوفة للسياسة الديمقراطية مثل أغورا؛ قاعة مدينة نيو إنغلاند؛ كنيسة القرية؛ المقهى والحانة؛

كريمة بوفلاحة

الساحة العامة؛ الحديقة؛ قاعة اتحاد؛ غرفة طعام في المصنع؛ وحتى زاوية الشارع. فالكثير من هذه الأماكن لم يعد يعمل كمنظم للمناقشة السياسية، ويبدو أنّ وسائل الإعلام لاسيما التلفزيون وأشكال الاتصالات الإلكترونية تعزل المواطنين عن بعضهم البعض و تعوّضهم عن المساحات القديمة في السياسة.

10-4- عدم جدوى اشتراط الاتصال المواجهي:

يقول مارك بوستر (Mark Poster): "إنّ عصر الفضاء العمومي كحديث وجهها لوجه قد انتهى بشكل واضح، و يجب أن تأخذ مسألة الديمقراطية من الآن فصاعداً في الاعتبار أشكالاً جديدة من الخطاب الذي يتم بوساطة الأجهزة الإلكترونية عبر تبادل الرموز والخطابات العامة على شاشات يتم إنشاؤها في مواقع نائية من قبل أفراد لم يسبق لهم أن التقوا أبداً، كما هو الحال في مع الانترنت والمجتمعات الافتراضية والمقاهي الإلكترونية ولوحات الإعلانات ورسائل البريد الإلكتروني والمؤتمرات الحاسوبية وحتى مؤتمرات الفيديو".

5. خاتمة:

يقول برنارد مياج (Bernard Mieg): "لا يملك الفضاء العمومي الحالي سوى علاقة ضعيفة بالنموذج النظري للفضاء العمومي الذي صاغه هابرماس" (B . Mieg, 1989, P. 59) ذلك أن النموذج الهابرماسي قد لاقى انتقادات كثيرة تتعلق بمرحلية المفهوم المقترح، وباشتراطه للحجاج العقلي على حساب الأنواع الأخرى للمحاجة، وكذا إهماله للفضاءات الشعبية والفضاءات البديلة وغيرها من الملاحظات التي اعترف هابرماس نفسه ببعضها و حاول تبرير بعضها الآخر في مقدمة الطبعة الثامنة عشر لكتابه (L'espace public : Archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise).

و لذلك فإنّ المفهوم يحتاج إلى توسيع أكبر للمجال الحضاري مع الأخذ بعين الاعتبار التحولات الهيكلية التي خضع لها، ومن هنا فإنّ المفهوم الهابرماسي لا يشكل المسلك الوحيد لتوصيف الفضاء العمومي الذي يعد معياريا ومثاليا، مما يحدّ من كونيته، فقد طرحت العديد من المقاربات البديلة ضمن المدرسة النقدية نفسها في سبيل تطوير المفهوم الأصلي و الاستفادة منه لتجاوز الأزمات التي أصبحت تتخبط فيها المجتمعات المعاصرة.

6. قائمة المراجع:

1. أبو النور حسن، أبو النور حمدي. (2012)، يورجين هابرماس: الأخلاق و التواصل، التنوير للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت.
2. إهرنبرج، جورج. (2008)، المجتمع المدني: التاريخ النقدي للفكرة، ترجمة علي حاكم صالح و حسن ناظم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
3. إوالد، فرانسوا. (2004) هابرماس جدلية العقل الحديث، ترجمة: محمد ميلاد، دار الحوار للنشر، اللاذقية.
4. الحمامي، الصادق. (د.ذ.س)، الميديا الجديدة و المجال العمومي: الإحياء و الانبعاث، مجلة الإذاعات العربية، تونس.

في نقد مفهوم الفضاء العمومي الهابرماسي

5. العباسي، مفيدة. (2010/2009). المجال العمومي والاتصال الافتراضي: مقارنة هابرماسية لدراسة المجموعات الافتراضية التونسية، (رسالة ماجستير غير منشورة في علوم الإعلام والاتصال، معهد الصحافة وعلوم الإخبار، جامعة منوبة، تونس)
6. عبد اللاوي، الناصر. (2012)، الهوية و التواصلية في تفكير هابرماس، دار الفارابي، بيروت.
7. عبد المقصود، هشام. (2009)، خصائص المجال العام لتقديم التعبيرات السياسية و الاجتماعية عن قضايا و أحداث الشؤون العامة في وسائل الإعلام الجديدة، مؤتمر الأسرة و الإعلام و تحديات العصر، كلية الإعلام، جامعة القاهرة.
8. العلوي، رشيد. (2016)، الفضاء العمومي المعارض: نقد أطروحة هابرماس، موقع مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث،
cles/%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B6%D8%A7%D8%A1https://www.mominoun.com/arti-D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%85%D9%88%D9%85%D9%8A%-D9%86%D9%82%D8%AF%-D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B9%D8%A7%D8%B1%D8%B6%-D8%A3%D8%B7%D8%B1%D9%88%D8%AD%D8%A9%up-size-font#4456-D9%87%D8%A7%D8%A8%D8%B1%D9%85%D8%A7%D8%B3%9. العلوي، رشيد. (2022)، الفضاء العمومي من هابرماس إلى نانسي فريزر، موقع مؤسسة مؤمنون بلا حدود،
ca6a596bb1242628290.pdf5460/11-https://www.mominoun.com/pdf1/2014http://fenni-e-: متاح على الرابط: 10. فني، عاشور. (2017)، تحولات الفضاء العمومي، مدونة الدكتور عاشور فني،
spaces.blogspot.com/2012/07/1962.html11. لعياضي، نصر الدين. (2011)، فضاء عمومي أم مخيال إعلامي مقارنة نظرية نظرية لتمثل التلفزيون في المنطقة العربية، حولية الآداب و العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، عدد 336، مجلد 31.
12. لعياضي، نصر الدين. (2017)، الميديا و الفضاء العمومي: محاولة تفكيك علاقة ملتبسة، مداخلة (غير منشورة) في مؤتمر "الفضاء العمومي و الميديا الجديدة"، قسم الإعلام، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، وهران.
13. مصدق، حسن. (2005)، النظرية النقدية التواصلية، المركز الثقافي العربي، المغرب.
14. مهيبل، عمر. (2005)، إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر.
15. D. Wolton, Dominique. (1997), L'espace public, cahiers français, N° 218.
16. Habermas, Jürgen. (1990) L'Espace public : Archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise, traduit de l'allemand par Marc B. de launay, Edition Paillot, Paris.
17. Mah, Harold. (2000), Phantasies of the Public Sphere ; Rethinking the Habermas of Historians, the Journal of Modern History, Vol. 72, No. 1.
18. Habermas, Jürgen. (1976), Legitimation Crisis, Trans, By : Thomas McCarthy, Heinemann, London.
19. Habermas, Jürgen. (1989), The Public Sphere: an Encyclopedia Article, in Stephen Broner, Douglas Kellner : Critical Theory and Society, Routledge, New York.

20. Habermas, Jürgen. (1996), Between facts and norms : Contributions to a discourse theory of law and democracy, Studies in Contemporary German Social Thought ,Cambridge, MA: MIT Press.
 21. Habermas, Jürgen. (1974), Public Sphere : An Encyclopedia Article, Translated by Sara Lennox, New German Critique, No. 3.
 22. Habermas, Jürgen. (1973), La science et la technique comme idéologie, Trad : Jean René Ladmiral, édition Gallimar .Paris.
 23. Habermas, Jürgen. (1987), Théories relatives à la vérité, in : Logique des sciences sociales et autre essais, tr : R. Rochlitz, Paris.
 24. Habermas, Jürgen. (1989), The Structural Transformation of the Public Sphere: An Inquiry into a category of Bourgeois Society, Polity, Cambridge <http://faculty.humanities.uci.edu/poster/writings/democ.html>.
 25. Mieke, Bernard. (1989), La société conquise par la communication : Logiques sociales, PUG, France.
 26. Poster, Mark, (1997), Cyber Democracy: Internet and the Public Sphere, <https://doi.org/10.4324/9780203948873-12>
-